الجراحة عند الشعوب القديمة

قبل عهد التاريخ المدوّن

وفي مصر وبلاد الكلدان والهند والصين"

الجراحة احدى الفروع الطبية التي مارسها البشر منذ أبعد ازمنة التاريخ. وقد مرّت عليها ادوار مختلفة وعصور كثيرة وهي تارةً في تأخر وانحطاط وطوراً في رقي وازدهار حتى هذا العصر اذ خرجت فيه منتصرة ظافرة بفضل المكتشفات العلمية الحديثة فأصبحت لها تلك المكانة السامية بين طرق العلاج المختلفة

وكلمة «جراح» (Cheirourgos) مستعارة من اليوناني القديم ومعناها (الذي يعمل عملاً يدويًّا) كانت تطلق غالباً عند الكتاب اليونانيين بلا تمييز سواء على الطاهي، أو ضارب القيثارة، أو الطبيب الذي يقوم بعملية، حتى أوائل التاريخ المسيحي اذ فقدت تدريجيًّا معناها هذا المبهم العام واضحت حينئذٍ محصورة في الطبيب الذي يمارس شغلاً يدويًّا يقضي باستعمال الآلات الجراحية (كخياطة الجروح او تضميدها، او جبر العظم المكسور او ردّ المخلوع منهُ الى مكانه)

ومما يجدر ذكره هنا ان التمييز الآن بين طبيب وجراح، الذي يبدو لنا اليوم طبيعيًّا واضحاً لم يكن موجوداً قديماً عند ما تأسست العلوم الطبية في اليونان بين القرن الخامس والرابع ق.م. فالمجموعة الابقراطية لا تشير في اي مكان لهذا الفرق بين مَن يداوي الامراض بالحمية والادوية والذي يعتني بالجرحى بيديهِ وآلاتهِ. لكن ازاء تقدم الجراحة الفني والصعوبة في معرفة تطبيقاتها التمرينية بالاختبار الشخصي من جهة، وازاء استعداد الشخص وامياله الخاصة لاجراء العمليات الدقيقة منها من جهة اخرى، جعل من هذا الاختلاط الحاصل حدًّا فاصلاً بين الطبيب والجراح وحصر كلمة «اخصائي» بهذا الاخير على ما نراه اليوم

وكما كان علم الطب وليد التجربة في أدواره الاولى كذلك كانت حالة ممارسة الجراحة التي ما لبثت ان بلغت عند اليونان في القرن الخامس ق.م. أعلى ما يمكن بلوغهُ من درجات الرقي والاتقان بانضمامها الى بقية العلوم الطبية. ويغلب على الظن ايضاً ان الجراحة قد كان لها شأنٌ خطيرٌ في ذلك العهد بتوحيد هذه الممارسات الطبية فاضافوا بذلك مجداً الى امجادهم الخالدة

ولا ينكر ان الباتولوجيا الجراحية كانت عندهم في اغلب الاحيان بسيطة ساذجة في شرح

لمبادئ العلل والامراض لكنها مع ذلك كانت دقيقة ممتازة من جهة وصف الجروح والكسور والخلع وموضوعة بقالب من الدقة بديع . كما ان مدرسته الجراحية بما فيها من دقة الملاحظة تركت آثاراً لا تمحى

ولكن ندرس تاريخ الجراحة في الماضي لا يوجد لدينا سوى قطع تشريحية او آلات محفوظة او كتابات صورية عدا بعض مصنفات فنية مختلفة القيمة والمصدر . واهم الآثار المحفوظة بل النادرة لسوء الحظ هي تلك القطع التشريحية من الجماجم التي ترجع الى ما قبل التاريخ ، لاسيما الادوات القديمة التي وُجدت في مصر وبمباي وهركولانوم

اما الكتابات الصورية (كبعض النقوش المصرية واليونانية) فتبدو غريبة في اشكالها اكثر مما هي مفيدة . إمّا لأنها كانت تمثل بعض عمليات جراحية بسيطة كالختان أو الفصاد مثلاً ، أو لأنها كانت قليلة الدقة في صنعها ومعرَّضة غالباً للتأويل والانتقاد

فلم يبقَ والحالة هذه سوى التصانيف الكتابية التي تمثل لنا كيفية ممارسة الجراحة عند القدماء وحتى عهد قريب منا . لكنها مع الأسف قليلة الوضوح في الوصف وناقصة الشروح في أكثر الاحيان لأن مؤلفيها يذكرون أحياناً تحت اسم واحد أشياء كثيرة متنوعة كان الأولى التمييز بينها . كما انهم يصفون بايجاز بعض العمليات التي كان يقتضي التفصيل فيها ، وينقلون الواحد عن الآخر من دون ان يذكر صاحب التأليف المنقول عنهُ مما أصبح متعذراً اعطاء كلٍّ منهم ما يستحقهُ من الاهلية ، والاختراع أو الطريقة التي تنسب الى الواحد دون الآخر

١ — ممارسة الجراحة قبل فجر التاريخ وعند الشعوب الأقدمين

إن الحفريات التي أُجريت في لوزير (Lozère) بفرنسا من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٤ قد اماطت اللثام للعالمين الفرنسيين برونيير وبروكا (Prunières & Broka) عن وجود ١٦٧ مثالاً من الجماجم البشرية المثقوبة التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري . ولدى الفحص الدقيق تبين انها كانت على نوعين : منها ما كانت عملية الثقب فيها أُجريت بعد الوفاة (وهذه لا تفيدنا من الوجهة الجراحية) ، وأخرى ما كانت قد أُجريت قبل الوفاة كما ظهر من التئام جوانب عظم الجمجمة المثقوب (وقد عاش المريض بعدها مدة طويلة) ، وأخرى أيضاً ما كانت قد أُجريت لهُ في الحياة وشفي حتى اذا لاقى حتفهُ عادوا فاقاموا من مكان العملية قطعاً صغيرة مستديرة لتكون لهُ بعد موته « عوذةً وحرزاً » ! . وقد دامت هذه الممارسة حتى العصر النحاسي اذ أخذت تقلّ تدريجيّاً ثم زالت بزوال العصر الثالي — الروماني

وفي سنة ١٨٩٤ كشفوا أيضاً في البيرو جماجم بشرية اخرى يرجع تاريخها الى ذلك العهد : منها ما كانت عملية الثقب فيها على النمط المتقدم ذكرهُ ، واخرى ما كان عليها آثار ندوب عظمية بشكل (T) في الرقبة او قحف الرأس ناجمة عن كيّ بليغ بالنار . وحتى اليوم

لا تزال بعض القبائل من تلك البلاد محتفظة بعادات اجدادها الاقدمين كما ان هذه العادة (الكي بالنار) لا تزال دارجة ايضاً في بعض انحاء الشرق وغيره

اما طريقة اجراء عملية الثقب عندهم فكانت سواء بحك تدريجي للعظم بواسطة قطعة من حجر الصوان الحاد تستخدم كمقص . او بضرب على المكان المقصود بحجر صوان خاص لهذه الغاية . وفي كلتا الحالتين ، كانت تنجح عملياتهم هذه كثيراً اذا بقيت السحايا الدماغية سليمة

وقد تضاربت آراء العلماء في معرفة ما كان يرمي اليه الاقدمون من ممارستهم لهذه العمليات فمنهم من عزاها الى ازالة الالتهابات الموجودة في عظم الرأس ، وآخرون عزوها الى الشفاء من بعض امراض الجهاز العصبي كالصرع مثلاً ، وآخرون ايضاً زعموا انها للحصول على قوة سحرية جذابة . وفريق آخر رأى فيها آثار تنكيل وعذاب او تضحية للآلهة في بعض طقوسهم الدينية

٢ — ممارستها في مصر وبلاد الكلدان والهند والصين

لم تختلف ممارسة الجراحة في هذه البلدان الا قليلاً عما كانت عليه عند الشعوب المتقدم ذكرها (قبل اتصال اهلها بسكان الغرب) — ماعدا الهند التي امتازت في ذلك العصر بجراحين كان يشار اليهم بالبنان والذين أبلغوا هذا الفن أعلى درجات الرقي والاتقان خلافاً للمصريين والكلدانيين الذين لم تكن عندهم جراحة بالمعنى الحقيقي اعني مجموعة منظمة من الباثولوجيا وفن معالجة الامراض لا سيما الكسور العظمية والخلوعة ، أو الجروح باسلحة الحرب اسوة بأهل اليونان والهند

﴿ ففي مصر ﴾ : كل ما لدينا من المستندات والدلائل المعروفة عن حالة الجراحة في ذلك العصر هو وجود بعض كتابات صورية وهيروغليفية ورسوم على الحجر والعاج ترجع الى خمسة وعشرين قرناً ق . م . وهي تمثل مناظر الختان وشقوقاً معمولة في العنق والاعضاء ، ثم ادوات يُرجح انها كانت جراحية . وممارسة التحنيط والمومياءات التي لا يزال اكثرها محفوظاً والتي يرجع تاريخ اقدمها الى الدولة الثانية عشرة . وهي بلا شك ذات شأن خطير من الوجهة التاريخية وتدلنا على حالة الجراحة في ذلك العهد . والختان في مصر كان اجبارياً عاماً وكان يمارس عند الجنسين في السن الرابعة عشر اي أنه كان فرضاً دينياً موروثاً من ماض بعيد خلافاً لما اعتقده بعضهم من أنهُ عادة صحية . ويغلب على الظن حسب قول هيرودوتس المؤرخ بأن المصريين هم الذين نقلوا عادة الختان اليهود والعرب ولو أنها اقتصرت عند هؤلاء على ذكورهم

وأقدم صورة كتابية معروفة حتى اليوم عما يختص بحالة الطب هي التي اكتشفت في طيبة بواسطة مستر أيبرز (Ebers) سنة ١٨٧٢ والتي ترجع الى خمسة عشر قرناً ق . م . وهي مجموعة مختلفة من وصفات كثيرة لمعالجة الامراض لكن هذا لم يرفع وقتئذٍ مستوى الطب عند المصريين الى الدرجة المتوخاة رغماً عن اختصاص كثير من اطبائهم بفروعه المختلفة

اما الادوات الجراحية والآثار التي اكتشفت في مصر سنة ١٩٠٩ فأبانت للعيان وجود

سكاكين مترية الشكل والحجم، منها ما هو نحاسي محدّب، واخرى ذات نصال بشكل حسام. ونصل آخر من حجر الصوان الحاد كان يستعمله قدماء المصريين لفتح البطن وقت التحنيط. ثم كلاليب من حديد لسحب النخاع من الأنف وأجهزة خاصة من خشب النخل لتثبيت العظام المكسورة عند جبرها. وعملية التحنيط كانت هكذا: يستأصل الطبيب اولاً المادة النخاعية من الأنف بواسطة كلاب خاص لهذه الغاية، ثم يشرط البطن فالصدر بسكين من حجر الصوان الحاد. وبعد ان يقيم ما في هذين الجوفين من الاعضاء يغسلان ثم يملأ الجوف الباطني من المرّ والصبر والطيوب المختلفة. وأخيراً يخاط البطن والصدر باعتناء تام وتنقع الجثة مدة سبعين يوماً في مزيج من الملح وكربونات الصوديوم وتلف نهائياً بلفائف مطلية بالصمغ

والذي يدعو الى الدهشة والاستغراب هو أن يوجد على كثير من هذه الجثث المحنطة المتدرجة من عهد الدول الأولى حتى العهد البيزنطي آثار جروح وقروح والتهابات لا تزال بادية للعيان (كتدرن الفقرات مثلاً، والتهاب ذات الجنب والصفاق، والروماتزم المشوه الخ..) مما يدلنا على أن البشرية لا تزال هي هي من الوجهة الطبيعية رغماً عن انقضاء ثلاثين أو اربعين قرناً بيننا وبين عصر الفراعنة، كما أنها لم تتغير كثيراً من الوجهة العقلية والأدبية رغماً عن مدنيتنا الحالية ومظاهرها الخداعة

﴿في بلاد الكلدانيين﴾: المعروف عن حالة الجراحة والطبابة عند سكان هذه البلاد انها كانت بسيطة ساذجة ان لم نقل متأخرة جداً لانها كانت مشبعة بالمعلومات الفلكية، والتفاؤل، والاعتقادات بما فوق الطبيعة والسحر والطلاسم. واليك ما قاله فيهم المؤرخ هيرودوتس وفي مستواهم العقلي من جهة الطب: «يعرضون مرضاهم في الساحات العمومية لافتقارهم الى وجود اطباء فالناس الذين يمرون بالطريق يسألون المريض عن دائه ليعرفوا اذا كانوا هم ايضاً مصابين بنفس الداء، او إذا كانوا قد رأوا اشخاصاً آخرين مبتلين به. وهكذا يتحادثون مع المريض ويشيرون عليه ان يتبع العلاج الذي نفعهم هم او الذي يعرفون انه افاد غيرهم. وليس مسموحاً ان يمرّ احد بمريض ويبقى ساكتاً.. بل عليه ان يسأله بعض المعلومات عن مرضه». وأهم سند تاريخي عُرف حتى اليوم مما يختص بتمدن الشعوب السامية القديمة هو اكتشاف شريعة حمورابي في قرية «السوس» بالعراق (شوشن القصر في التوراة) سنة ١٩٠١—١٩٠٢ بواسطة مستر مورغن والتي يرجع تاريخها الى نحو عشرين قرناً ق. م. واليك ملخص بعض بنودها عن ممارسة الجراحة في ذلك العصر حسب ترجمة الاب شايل (Scheil) سنة ١٩٠٠:

١ — اذا عالج الطبيب رجلاً مصاباً بجرح بليغ بواسطة مخرز نحاسي وشفي، او اذا ازال غشاوة عن عين المريض بذات الآلة وشفيت عينه يتقاضى اجرة عشرة (سيكل) فضة

٢ — اذا داوى الطبيب جريحاً بمخرز نحاسي ومات الجريح، او اذا فتح لأحدهم غشاوة العين

وأفقده بصره تقطع يديه !؟ — اذا شفى الطبيب عضواً مكسوراً او ابرأ احد الاعضاء الداخلية المريضة ، يدفع المريض الى الطبيب خمسة سيكل فضية . اما اذا كان المريض فقيراً او مستعبداً فالأجرة تكون اقل فيما لو نجحت العملية . وبخلاف ذلك يدفع الى المريض تعويضاً مالياً »

ومن هذا يتضح لنا قدر المسؤولية الطبية في نصوصهم كهذا خلافاً لاطباء وجراحي اليونان والرومان في ذلك العهد الذين لم يكونوا مقيدين بأية مسؤولية من هذه الوجهة . والويل للطبيب اذا مات المريض فاسيد الحرّ المطلق لا يعوّض فلذلك كان جزاء الطبيب الموت العاجل كيلا يرحل المريض وحده الى الابدية !

﴿ في الهند ﴾ : ارتقت الجراحة في القدم عند سكان هذه البلاد ارتقاء باهراً فنافس الهنود اليونانيين في كثير من العلوم الطبية كالتشريح والفيزياء (الطبيعة) ، وعرفوا مفاعيل بعض المخدرات واستعملوها في بعض عملياتهم الجراحية . كما انهم اوجدوا كثيراً من الادوات الجراحية : مشارط ومناشير وملقطات ومجسات الخ وأجروا عمليات الفتق والقيصرية وعمليات العيون والأنف واستئصال الأورام السطحية . وثمة أمر واحد يجادل عليه ولم يبت فيه حتى الآن وهو ايهما أثر في الآخر من الوجهة العلمية العامة الهنود أم اليونان ؟ ان كتاب سوسراتا (Susruta) الذي هو عبارة عن مجموعة طبية والذي يذكرنا بالمجموعة الابقراطية لم يرجع تاريخه حسب قول المؤرخين الا الى القرن الرابع او الخامس ق . م . وبما ان غزوة اسكندر الكبير التي أنشأت علاقة متينة بين التمدن الهندي والتمدن اليوناني ليست الا من سنة ٣٢٧ ق . م . فيغلب على الظن اذ ذاك ان الجراحة اليونانية التي كانت متقدمة على عهد اسكندر الكبير قد أثرت على الجراحة الهندية . وربما ايضاً تكون هذه النظرية بالعكس

﴿ في الصين ﴾ : كانت الجراحة في هذه البلاد معدومة تماماً قبل دخول الاوربيين اليها وكتب الصينيين الطبية كانت خليطاً من الأوهام الغريبة الشاذة والتعاويذ والاغلاط الفادحة : مثلاً الحنجرة تنتهي في القلب ! والنخاع الشوكي ينتهي في الخصية !! والكبد له سبعة فصوص . . .
كذلك الباثولوجيا : يوجد عشرة آلاف نوع من الحمى . و ١٤ نوعاً من الدوسنطاريا !! . . .

ومن هذا نستنتج مدى تأخر الجراحة والعلوم التشريحية عندهم ، لا سيما عند شعب لا يحب ان يرى منظر الدم او ان تبتر احد الأعضاء او يجدع الجسم الحي . وما عدا هذا فالصينيون لم يكونوا يستعملون الا الدلك والحجامة والكي بالنار لا سيما الوشم الذي من شأنه على زعمهم ان يشفي انواع الامراض فكانوا يستعملون لذلك إبراً رفيعة طويلة يدخلونها في الجسم حتى في العنق والصدر والبطن . ولا يخفى ما في اجراء عمليات كهذه من الخطر

القورنه — العراق — الدكتور عبده رزق